الباب التاسع

فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته

قال رضي الله عنه: أطلعني الله على الملائكة وهي ساجدة لآدم عليه السلام فأخذ، بقسطي من ذلك، فإذا أنا أقول:

ذاب رسمي وصحّ صدقُ فنائي ... وتجلّت للسرّ شمسُ ضيائي
وتنزلت في العوالم أبدي ... ما انطوى في الصفات بعد صفائي
فصفائي كالشمس يبدو سناها ... ووجودي كالليل يخفي سوائي
أنا معنى الوجود أصلًا وفصلًا ... من رآني فساجد لبهائي
أي نور لأهله مستبين ... أشهدوني فقد كشفت غطائي

وسئل رضي الله عنه عن الروح والنفس فقال:

إن كنت سائلنا عن خالص المنن ... وعن تعلّق ذات النفس بالبدن
وعن تشبّثها بالخط مذ ألفت ... أدرانها فغدت تشكو من العطن
وعن تنزّلها في حكمها ولها ... علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن بواعثها بالطبع مائلة ... تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
وعن حقيقتها في أصل معدنها ... لا ينثني وصفها منها إلى وثن
فاسمع هديت علومًا عزّ سالكها ... عن العيان ولا يغررك ذو لسن
قصدًا إلى الحق لا تخفى شواهدها ... قامت حقائقها بالأصل والفنن
يا سائلي عن علوم ليس يدركها ... ذو فكرة بفهوم لا ولا فطن
لكن بنور على جامع خمدت ... له العقول وكل الخلق في وسن
خذها إليك بحقٍّ لست جاهله ... والأمر مطلع والحق قيّدني
عن الحقيقة خذ علم الأمور ولا ... تحجبك صورتها في عالم الوطن
تطوّر النفس سرٌّ لا يحيط به ... عقل تقيّد بالأوهام والدرن
لكنها برزت بالحكم قائمة ... حتى تألفها السكان بالسكن
وكي يقال عبيد قائمون بما ... ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن
والنفس بين نزولٍ في عوالمها ... كآدم وله حواءُ في قرن
والروح بين ترقٍّ في معارجها ... وهي الموافق للتعريف والمنن
مثالها في العلا مرآة معدنها ... ألطافها خفيت كالسرّ في العلن
زيتونة زيتها نور لشاربها ... مدّت هدايتها في الكون والكين

والكل أنت بمعنى لا خفاء به ... والنور يحجبه كالماء فى اللبن
والعبد محتجب فى عزّ مالكه ... دقّت معارفه فى الدهر والزمن

وكان ينشد رضى الله عنه:

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت ... أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها ... حين التزلزل والرجال رجال

وقال: الأرض أرض النفس، والجبال جبال العقل، والشمس شمس المعرفة.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وقفت على التوباذ حين رأيته ... فكبر للرحمن حين رآنى
فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك فى أمن وحفظ زمان
فقال مضوا واستودعونى ديارهم ... ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

وكان ينشد رضى الله عنه:

لست من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلب بيته والمقاما
وطوافى إجالة السرّ فيه ... وهو ركنى إذا أردت استلاما

وكان ينشد رضى الله عنه:

وقد بقينا مذبذبين حيارى ... نطلب الوصل ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخفّ علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيل

وكان ينشد رضى الله عنه للسهر وردى رضى الله عنه:

أبدًا تحن إليكم الأرواح ... ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم ... وإلى كمال جمالكم ترتاح
يا رحمة للعاشقين تحملوا ... ثقل المحبة والهوى فضّاح
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماءُ البائحين تباح

وكان ينشد رضى الله عنه:

مرت لنا بمنى والخيف أوقات ... وطيب عيش قطعناه ولذات
لأسلكن ولو أن الأسود بها ... قوافل ورماح الخط غابات

وكان ينشد قول امرئ القيس:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك إنما ... نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

وكان يقول: نحاول ملكا بالبقاء، أو نموت فنعذر بوجود الفناء.

وكان ينشد من قصيدة ابن العطار:

رفعت مقامات الوصال حجابى ... حتى احتجبت بكم عن الحجاب

ولـزمت محـرابى لـزوم مجمـع ... فرأيت وجه الحق فى المحـراب
وخـرقت لوح سفينتى لأعيبهـا ... فنجـوت من ملك لها غصّـاب
وقتلت من نفسى غـلامًـا قتله ... سبب النجـاة وأعظم الأسبـاب
وكشفت عن قلبى جدار حجابه ... عن كنـزه الباقى بغـير ذهاب
ورقيت فى السبع السموات العلا ... حتى دنوت فكنت مثل القـاب

وأنشد بين يديه وأنا حاضر أسمع:

خـذ من كلامى مـا يلذّ جنـاه ... وينم كـالمسـك العبيق شـذاه
ذكر الإله الـزم هديت لـذكره ... فيـه القلوب تـطيب والأفـواه
واجعل حلاك تقاه إنّ أخا الحجا ... يا صاح من كانت حلاه تقاه
ولتعمـل الأفكـار فى ملكـوتـه ... مستغرقًا فى الكشف عن معناه
ولـتخلع النـعلين خـلع محـقـق ... خـلا عن الكونـين فى مسـراه
ولتفْنَ حتى عن فنـائـك إنـه ... عـين البقـاء فعنـد ذاك تـراه
وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو ... كـلّا ولا أيضًـا تكـون سـواه
شيئـان ما اتحـدا ولكن ههنـا ... سـرّ يضيق نـطاقنـا عـما هـو
يا سامعًا ما قد أشرت له ألا ... قلب يفكـر مـا وعت أذنـاه
أزل الحجاب حجاب حسك ينكشف ... لك سرّ ما قد غاب عنك سناه
إن الإلـه أجـلّ مـا متعـرف ... من لم يراه قد استبـان عماه
فيـه يراه ذوو البصـائر والنهى ... مـا غـاب عنهم لحـظة مـرآه
أنى يغيب وليس يـوجد غيـره ... لكن شـديـد ظهـوره أخفـاه

ولما انتهى فى الإنشاد إلى قوله:

وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو ... كـلّا ولا أيضًـا تكـون سـواه
شيئـان ما اتحـدا ولكن ههنـا ... سـرّ يضيق نـطاقنـا عـما هـو

قال الشيخ رضى الله عنه: ولا نستطيع أن نبينه أبدًا.

وقرأت عليه القصيدة المنسوبة لابن الفرس:

الله ربى لا أريـد سـواه ... هـل فى وجـود الحق إلّا الله
ذات الإلـه بهـا قـوام ذواتنا ... هـل كان يـوجد غيـره لولاه
لا غـرو فى أنّـا رأينـاه بـه ... فـالنـور يـظهـر ذاتـه فتـراه
فـالسالكـون مشـاهـدون لصنعـه ... مستغـرقـون بفكـرهم إيّـاه
والعـارفـون مشـاهـدون لـذاتـه ... حـتى كـأن قـلوبهـم مـثـواه
يـا غائبًـا والحق فيه حـاضـر ... أتغيب عنه وما شهـدت سواه
من لم يشـاهد بـالبصيرة ذاتـه ... فلقد أحاط بـه حجاب عمـاه
من لا يرى فى كل حال غيره ... فمن المحـال عليـه أن ينسـاه

من كان فى الملكوت يسرى فكره ... فالفوز بالحسنى ثواب سراه
سبحان من خرق الحجاب لعبده ... وهداه منهج قصده فرآه
سبحان من ملأ الوجود أدلّةً ... ليلوح ما أخفى بما أبداه
سبحان من لو لم تلح أنواره ... لم تعرف الأضداد والأشباه
مولاى أنت الواحد الصمد الذى ... فى حضرة الملكوت شاهدناه
مولاى أنسك لم يدع لى وحشةً ... إلّا محا ظلماتها بسناه
مولاى عبدك لا يخاف تعطّشًا ... أيخافه والحق قد روّاه
مولاى لا آوى لغيرك إنه ... حرم الهدى من لم تكن مأواه
أنت الذى خصصتنا بوجودنا ... أنت الذى عرفتنا معناه
لم أفش ما أودعتنيه فإنه ... ما ذاق سرّ الحق من أفشاه
من كان يعلم أنك الفرد الذى ... بهر العقول فحسبه وكفاه

فقال الشيخ: كل هذا تحويم وليس هو عين القصد.

ووجدت بخط ابن ناشى قال: كتب إلى سيدى وشيخى أبى العباس المرسى وكان قد ورد سلامه علىّ فقلت:

ورد السلام من الإمام فسرّنى ... أنى مررت بخاطر لم ينسنى
إن كنت تعلم يا رسول بأنه ... باق على العهد القديم فهنّنى
شيخى أبو العباس واحد وقته ... خضر الزمان ورب عين الأعين
أسفى على وقت لديك قطعته ... بالباطن الربى قد ربيتنى
ما كنت إلّا حائدًا فرددتنى ... وإلى الطريق المستقيم هديتنى
وسقيتنى ماء الحياة وكنت لى ... كالخضر لما أن رويت سقيتنى
ولو استطعت قطعت عمرى عنده ... لأعيش بعد الموت فى عيش هنى
يا أيها المرسى ببحر معارف ... سافر إلى المرسى بريح لين
فهو الطريق إلى النبى محمد ... إن كنت يومًا بالإرادة تعتنى
صلى عليه الله ما ذكر اسمه ... فى عالم من عالم متفنن

ومدحه الأديب الفاضل شرف الدين البوصيرى بقصيدة منها:

أما المحبة فهى بذل نفوس ... فتنعمى يا مهجتى بالبوس
بذل المحب لمن أحب دموعه ... وطوى حشاه على أحرّ رسيس

ثم مر فيها إلى أن قال:

صدق وقل من لم يقم كقيامه ... لم ينتفع منه امرؤ بجلوس
قبل الإله تقرّبى بمديحه ... وتوجّهى لجنابه المحروس
رمت المسير له فأعجزنى السرّى ... وأباحنى مرآه غير بئوس
أكرم بيوم الأربعاء زيارة ... فكأنه عندى كألف خميس

كل اتصالات السعيد سعيدة بمثابة التثليث والتسديس

ثم مرّ فيها إلى أن قال:

شرفًا لشاذلة ومرسيّة سرت لها الرئاسة من أجلّ رئيس
ما إن نسبت إليها شيخيها إلّا جلوتها جلاء عروس

وكنت فى مبدأ الشبيبة عملت فيه قصيدة، وأنشدت بين يديه، فلما فرغ من إنشادها قال: أيدك الله بروح القدس وهى هذه:

برزت سلمى بأثناء الخيم فأرتنا البدر من تحت اللمم
وحدا الحادون لما أبصروا وجهها فى الليل صبحًا قد ألم
وعذرناهم وماذا عجب أن يرى وجه لسلمى فى الظلم
كضياء الصبح أو بدر الدجى وجهها أكمل نورًا وأتم
لو رآها البدر أثنى راجعًا خجلا من وجهها ومحتشم
أو رأتها الشمس لم تطلع ضحى ثم صارت خدن همٍّ وندم
عذبت قلبى بهجران به عذّب العشاقُ قبلى فى القدم
وكستنى ثوب همٍّ وضنىً صرت بين الناس فيه كالعلم
وأبت إلّا صدودًا دائمًا فأبى دمعى إلّا أن يُنم
فسهرت الليل أرعى نجمه أذكر الوصل الذى قد انصرم
كلما رُمْتُ لعينى هجعة قال لى القلب رويدًا لاتنم
تدعى العشق وتأتى ضدّه إنما العشق سهاد وسقم
لازم الباب بذلٍّ وأسىً فهما فى العشق شرط يلتزم
ودع التقصير فى خدمته شمِّر الذيل ولا تخش الألم
واجتهد علّك أن تنجو غدًا من عذاب الله خلّاق الأمم
لا تقل لى إن هذا زمن عسر فيه وجود من سلم
أولياء الله لم ينقرضوا إن حزب الله غير منهزم
قد رأينا كلهم فى واحد ذى بهاءٍ ووفاءٍ وهمم
فى أبى العباس مجموع الذى مُنحوه من علم وحكم
بأبى العباس زاحت كربة عن قلوب الخلق وانجابت ظلم
وبه شمس الهدى قد ظهرت وبه درّ العلوم قد نظم
أىّ نور بدا لأهله أى علم قد بدا لمن فهم
ولقد فضّله رب العلا وكساه حللا من النعم
قل لأقوام أرادوا شأوه أقصروا إن الإله قد قسم
ليس هذا الأمر أمرًا هيّنًا فتنالوه بجدٍّ وهمم
إنما هى قسمة قد قسمت أعطيت أحمد فى حال العدم

نـازعـوا الله تعـالى حكمـه ... إذ أرادوا ستر ذا النور الأتم
إن يكونوا أنكروا شمس الضحى ... إذ تبدى النور منها واستتم
فهم إخـوان جهـل وهـوى ... وهـم إخـوان هـمٍّ ونـدم
وقـديمـا قـال فيـه شيخـه ... وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إنمـا أنت أنـا فـاعلم بـذا ... إن هـذا ليس أمـرًا مكتتم
وحـديث الشيـخ عنه شائـع ... ذائع مـا بـين عـرب وعجم
لـو بسطنـاه لـطال بسـطه ... ولـزاد الشـرح فيـه وعـظم
إنهم لن يستـطيعـوا جحـده ... فتـراهم مـازجى شهـدٍ بسم
فـليـدم غـيـظهم وحـقـدهم ... وليمـوتـوا كلهم مـوتـة غم
دمت فى عزٍّ على رغم العدا ... ما رقى القمرى فى غصن سلم

وحين انتهى فى الإنشاد إلى قولنا:

قـد رأينـا كلهـم فى واحـد ... ذى بهـاءٍ ووفـاءٍ وهمـم
فى أبى العبـاس مجموع الـذى ... منحـوه من عـلوم وحكـم

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء وليس فى الأولياء ما فيك.

ولما انتهى فى إنشادها إلى قوله:

وقـديمـا قـال فيـه شيخـه ... وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إنمـا أنت أنـا فـاعلم بـذا ... إن هـذا ليس أمـرًا مكتتم

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

ومكثت بعد ذلك مدة سنين ثم أتى الشيخ رضى الله عنه من الصعيد فلما اجتمعت به أرانى قصيدة عملها فيه إنسان من أهل أخميم وقال: أجبه. فذهبت فتوقّف علىّ القول، فقلت: عجبا يأمرنى الشيخ ويتوقّف على القول، هذا والله من عدم صدقى، فلما قلت ذلك فتح الله باب الكلام حتى كأنما كانت سيلاً تدفّق إلى أن تكلمت قصيدة، فلما قرئت عليه وقعت منه موقع الرضا حتى كان يمكث المدة من الزمان ويستعيدها، وقال لما قرئت عليه: هذا الفقيه صحبنى وبه مرضان وقد عافاه الله منهما: يعنى وجعًا فى الرأس والوسوسة فى الطهارة، ولابدّ أن يجلس ويتحدث فى العلْمين، وهى هذه:

قف بالديـار فقد بـدا مغناهـا ... فلمن تسير وما المـراد سواهـا
وأرح قلوصك قد بلغت المنحنى ... فلطال ما جهدَت ودام سـراها
ولطال ما قطعت مهامه واغتدت ... أرسـاغهـا مخضـوبـة بـدمـاهـا
تمسى وتصبح لاتملّ من السرَى ... حـتى تـنـكّـت أنّها ووجـاهـا
رفقًا بها يـا أيها الحـادى ولا ... تغرى بها فالشوق قد أغراها

يكفى الذى لاقته من ألم السرى ... وكفى بها وصدَ بها وكفاها
أو ما تراها كيف تذرى دمعها ... حتى تبلّ من الدموع ثراها
يحدو بها نحو الديار غرامها ... ويقودها نحو الحبيب هواها
فازت بأن وصلت إلى أحبابها ... فتمايلت والشوق حشو حشاها
حنّت وأنّت إذ رأت وادى النقا ... واستبشرت فيه بنيل مناها
فسرورها كسرور أيام غدا ... فيها أبو العباس شمس ضحاها
تاهت بأحمد إذ أتاها رحمة ... وغدت به بين الورى تتباها
وتشرّفت أوقاتها بمجيئه ... وتجلّت الأيام منه حلاها
وغدا يسدّد أمر دين محمد ... فأزاح عنها كربها وجلاها
إن تلقه تلق إمامًا راسخًا ... حبرًا منيبًا صادقًا أوّاها
قد كملت فيه الفضائل كلها ... وتجمعت فيه على أخراها
كم سنّة ماتت فأحيى رسمها ... كم بدعة عقدت فحلّ عراها
كم من أتاه والمعاصى دأبه ... قد قيدته نفسه بهواها
فأزال عنه ما به فتقشّعت ... عنه سحائب ظلمة بدجاها
كم من قلوب قد أميتت بالهوى ... أحيا بها من بعد ما أحياها
أحييت علم القوم فى زمن به ... قلّ المساعد فانجلت ظلماها
وأتيت غوثًا للأنام وقبل ذا ... ركبت محارم واستبيح حماها
وغدوت ترفل فى ثياب معارفٍ ... ولبستَ من حُلل التقى أسناها
مازلت حتى طاوعتك نفوسنا ... فأزلتَ عنها جهلها وعماها
من بعد ما ظفرت بنا وتحكّمت ... فينا وزلّت عن سبيل هداها
ذلّلتها حتى أتت منقادةً ... من بعد ما جمحت وعزّ شفاها
فلذاك أضحى ودُّها لك خالصًا ... بشرى لها فى ودِّها بشراها
فغدوتَ أعلى همّها فى جهرها ... وكذاك أيضًا أنت فى نجواها

ما زلتم تهدون أمة أحمد ... فبكم تكمل برَّها وتقاها
قد كان قدما بالبرية حيرة ... حتى أتى قطب الورى فهداها
بالشاذلى تقشّعت ظلماؤها ... وتنوّرت بمجيئه أفقاها
كنز التقى علم الهدى بحرى الندى ... قطب البرية غوثها ملجاها
من كان إن خطبٌ ألم حماها ... وزوى بها عن صرفه ووقاها
كهفٌ تلوذ به البرية كلها ... ترجوه فى لأوائها ورخاها
حتى توفّاه الإله فيالها ... من بغية قد حازها وحواها
وخلفته فى حاله ومقامه ... بالإرث منه فارتقيتَ علاها
الله أبقى للبرية أحمدا ... وأقامه فيها لكى يرعاها
إن الذين تعرضوا لفخاره ... طبقت جفونهم على أقذاها

إن تنكروا الآيات وهى ظواهر فلقد تبدّت واستبان سناها
هم يعلمون بأنه قطب الورى لكنه غلب النفوس هواها
أو ما ترى قوم النبى محمد جحدوا ولجوا فى الجحود سفاها
مع علمهم أن النبى محمدًا كان الرسول أتى لها بهداها
فأدام غيظهم المليك ولم تزل فى حالة يرضى بها مولاها
تهدى إليك المكرمات بأسرها وتنال من رتب العلا أقصاها

وكان يعجبه منها:

كم من قلوب قد أميتت بالهوى أحيا بها من بعد ما أحياها

فكان يستعيد القصيدة إلى هذا البيت، فإذا انتهى فى الإنشاد إليه استعاده، جعل الله مدحنا هذا موضوعًا فى الميزان، وموجبًا للرضوان، بمنّه وكرمه.